

الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل

[313] وهذا الأمر لا يخلو من إحدى حالتين، فإمّا أن تكون هذه النعم مدعاة للتنبيه والإيقاظ فتكون الهداية الإلهية في هذه الحال عملية. أو أنّ هذه النعم تزيدهم غروراً وجهلاً، فعندئذ يكون عقاب الله لهم في آخر مرحلة أوجع، لأنّهم حين يغرقون في نعم الله وملذاتهم ويبطرون، فإنّ الله سبحانه يسلب عندئذ هذه النعم منهم، ويطوي سجل حياتهم، فيكون هذا العقاب صارماً وشديداً جدّاً... وهذا المعنى بجميع خصوصياته لا يحمله لفظ الإستدراج وحده، بل يستفاد هذا المعنى يفيد (من حيث لا يعلمون) أيضاً. وعلى كل حال، فهذه الآية تنذر جميع المجرمين والمذنبين بأنّ تأخير الجزاء من قبل الله لا يعني صحة أعمالهم أو طهارتهم، ولا عجزاً وضعفاً من الله، وأن لا يحسبوا أنّ النعم التي غرقوا فيها هي دليل على قربهم من الله، فما أقرب من أن تكون هذه النعم والانتصارات مقدمة لعقاب الإستدراج. فإسبحانه يغشيهم بالنعم ويمهلهم ويرفعهم عالياً، إلا أنّهم يكسبهم على الأرض فجأة حتى لا يبقى منهم أثر، ويطوي بذلك وجودهم وتاريخ حياتهم كله. يقول الإمام علي(عليه السلام) في نهج البلاغة أنّهم "من وسّع عليه في ذات يده فلم يَرَ ذلك استدراجاً فقد أمن مخوفاً"(1). كما جاء عنه(عليه السلام) في روضة الكافي أنّهم قالوا: "ثمّ إنّهم سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس في ذلك الزمان شيء أخفى من الحق، ولا أظهر من الباطل، ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله(صلى الله عليه وآله وسلم) - إلى أن قال - يدخل الداخل لما يسمع من حكم القرآن فلا يطمئن جالساً حتى يخرج من الدين، ينتقل من دين ملك إلى دين ملك، ومن ولاية إلى ولاية ملك، ومن طاعة ملك إلى طاعة ملك، ومن عهد ملك إلى _____ 1 - تفسير نور الثقلين، ج 2، ص 106.